حوار مع السيد أحمد الصافي

بمناسبة الذكرى الألفية للسيد المرتضى

تصادف في هذه السنة أي: سنة ١٤٣٦هـ الذكرى الألفية لوفاة السيد الجليل علي بن الحسين الملقّب بالمرتضى، حيث توفي على أوضح الروايات سنة ٤٣٦هـ، وتعلمون انّه يمكن أن يقع خلاف في سنة الوفاة لسنة أو سنتين، وهذا أمر متعارف لا ضير فيه، فهناك من يقول أيضاً بانّه توفّي عام ٤٣٣هـ، لكن المشهور ماذكرناه.

كان علم الهدى من علمائنا الأكابر الذين عاشوا في ظرف أرسوا فيه لمذهب أهل البيت مجموعة كبيرة من القواعد، والفترة التي عاش فيها السيد المرتضى (رضوان الله عليه) كان فترة نشوء مجموعة من المدارس وخصوصاً المدارس الكلامية، ولذلك اشتهر السيد المرتضى ـ كاستاذه الشيخ المفيد وتلميذه الشيخ الطوسي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ بالموسوعية، وهذه الحالة الموسوعية كانت ترافق علمائنا الأعلام في تلك الفترة، ولعلّ المبرز فيهم كان الشيخ المفيد فتجده متكلماً وفقيهاً وأديباً، وكذلك السيد المرتضى فقد اشتهر أيضاً بالموسوعية فتجده عالماً متكلماً مفسراً أديباً حتى كان كتابه المشهور «غرر الفوائد» من الكتب النفيسة التي تحتوي على درر كثيرة لها علاقة بالأدب فضلاً عن شاعريته حتى قال فيه القائل انه لو لا المرتضى لكان الرضي أعلى الناس، ولو لا الرضي لكان المرتضى أشهر الناس. هذا دلالة على عمق ما عنده.

انّ حياة السيد المرتضى حياة حافلة، وأود هنا أن أقف عند جانبه العلمي والمعنوي بشكل سريع:

السيد المرتضى ـ وكذلك الرضي ـ حُفّ بمجموعة من العنايات والبركات في أوائل طفولته، والرؤيا المشهورة عن الشيخ المفيد الدالة على انّه رأى فاطمة الزهراء عليها السلام أقبلت إليه مصطحبة الحسن والحسين عليهما السلام وقالت له: هذان ولداي علمهما. فالشيخ المفيد عندما أفاق من النوم دهش لهذه الرؤيا إلى أن ارتفعت دهشته بعدما جاءته فاطمة بنت الناصر وهي تصطحب السيد المرتضى والسيد الرضي وطلبت منه أن يعلمهما.

هذه الرؤيا تدلّ على عناية بهذين الصبيين، لذلك لم يسأل الشيخ المفيد جهداً في تربيتهما.

النقطة الثانية: تدلّ كذلك على عظمة السيد المرتضى، وهي انّه مرض أحد الأمراء وهو محمد بن الحسين بن عبد الرحيم، فعندما مرض رأى في المنام أمير المؤمنين عليه السلام قال: قل لعلم الهدى أن يقرأ عليك الحمد حتى تبرأ، فقال: (من علم الهدى) قال: علي بن الحسين الموسوي. وعندما خوطب السيد بهذا اللقب قال: الله الله في نفسي فانّ الناس لا تقوى على ذلك، قال له: ما خاطبتك الاّ بما خاطبك به جدك.

الغرض من ذكر هاتين الحادثتين انّ السيد المرتضى إضافة إلى علمه وتقواه وتضلّعه في مسائل كثيرة؛ كان هذا شأنه، ومن كان هذا شأنه لابد من أن تمدّ إليه الأعناق ويشار إليه بالبنان. ولذا صار زعيم الطائفة الأوحد في وقته وأنيطت إليه نقابة الطالبيين بعد وفاة أخيه.

عاش السيد قرابة ثمانين سنة حتى لُقّب بالثمانيني، ولُقّب أيضاً بذي المجدين، أي: مجد الدنيا ومجد الآخرة، والشيء المهم عند السيد المرتضى انّ كثيراً من العامة والخاصة يفهمون مذهب الشيعة من خلال أقوال السيد المرتضى بمعنى انّه إذا قال

السيد شيئاً يعتبرونه قول الشيعة، وهذا إن دلّ علي شيء يدلّ على غزارة علم هذا السيد الجليل الذي تربّع على دست الزعامة مدّة طويلة من الزمن.

السيد المرتضى متعدّد المواهب متعدّد الميزات وكان أيضاً مشجّعاً للعلم والعلماء، إذ إنّه كان ميسور الحال، وقد أوقف كثيراً من الموارد على طلبة العلوم الدينية حتى انّ بعض اليهود كان مقلاً وحاول أن يحتال فجاء إلى درس السيد المرتضى طمعاً بما يُعطي للطلبة، وبعدما شملته عناية السيد أسلم بعد فترة على يده عندما رأى كرمه وأخلاقه وطيب نفسه. هذه الأرومة الأصيلة التي كانت عند السيد التي ورثها عن أسرته العريقة خرّجت كثيراً من التلاميذ على يده.

أعتقد انّ ابراز حياة العلماء، ابراز حياة السيد المرتضى في هذه الأزمنة يُعدّ نوعاً من ردّ الجميل لهم، ونحن الآن مع هذه الذكرى بحاجة إلى استنطاق جميع ما كتبه السيد المرتضى سواء في المؤلّفات المستقلّة أو اقتناص أقواله في ضمن مجموعة الكتب التي تنقل الأقوال وجعلها في متناول الأخوة الباحثين لتكون مدعاة لمراجعة أقوال السيد المرتضى.

والخلاصة انّ السيد المرتضى كان علماً من أعلام الطائفة، وكان سيداً جليلاً وشاعراً وأديباً كبيراً، ولعلّ محلّ دفنه كما عند بعضهم بجوار جدّه الإمام الحسين عليه السلام حيث نقل جثمانه من الكاظمية، ولعظمته ومكانته المرموقة كان نصير الدين الطوسي عندما يُذكر عنده السيد يقول: صلوات الله عليه، ثم يقول: وكيف لا يصلّي عليه. فرضوان الله تعالى عليه وصلوات الله عليه.